الشباب والهوية الثقافية الجزائرية في ظل العولمة: بين جدلية القبول والرفض

أستاذة: حفيظة محلب.
جامعة الجزائر3.
البريد الالكتروني: mehleb444hafida@yahoo.fr

الملخص:
تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على مفهوم الهوية الثقافية ومحددات الهوية الثقافية الجزائرية التي كانت ولا تزال قبل كل شيء تعبير عن الانتماء، الانتماء إلى حضارة ميزتها الأمازيغية والعربية الإسلامية، في ظل تداعيات العولمة الثقافية والإعلامية، في عصر يتسم بالتقدم التكنولوجي والانفجار المعرفي والانفتاح الثقافي والمتغيرات السريعة في العديد من المجالات المادية والتقنية والاقتصادية والثقافية، لنعرض في الأخير سبل تعزيز الهوية الوطنية للشباب عن طريق تعزيز انتمائه وإحساسه بواجبه نحو ذاته ومجتمعه وتحصينه من الأفكار الهدامة، وذلك من خلال توقي سلبيات عصر المعلوماتية واستثمار إيجابياتها بما يشبع حاجاته مما يساعده في عملية دعم الهوية من جميع الجوانب الحياتية: الاجتماعية، الثقافية والنفسية مما يسهل على الشباب تحقيق هويتهم الشخصية والثقافية السوية.
الكلمات المفتاحية: الهوية الثقافية، العولمة الثقافية، العولمة الإعلامية، الشباب.

Le résumé :
L’étude vise à surligner le concept de l'identité culturelle et les déterminants de l'identité culturelle Algérienne qui était et reste avant tout une expression d’appartenance , l’appartenance à une civilisation distinguée par la barbarie et l’arabo-islamique , dans les conséquences de la mondialisation culturelle et médiatique , Dans une époque caractérisée par une avance technologique , l’explosion des connaissances, l’ouverture culturelle et les changements rapides dans les différents domaines physiques, techniques ,économiques et culturelles. Pour exposé en dernier les manières de renforcer l’identité nationale pour la

jeunesse par renforcement de son appartenance et son sens du devoir envers lui-même et sa communauté et son immunisation des idées destructrices , et ce par la prévention des inconvénients de l'époque informatique et l'investissement de ses avantages qui lui aide dans processus de soutien d'identité de toutes les cotés de la vie : sociale , culturelle et psychologique qui facilite pour les jeunes de réaliser leur identité personnelle et culturelle normale .

Les mots clés : l'Identité Culturelle, La Mondialisation Culturelle, La Mondialisation Médiatique , La jeunesse**.**

مقدمة:

تواجه العديد من الدول بصفة عامة ودول العالم الثالث بصفة خاصة مشاكل وأزمات خطيرة تهدد وحدتها الوطنية بالانهيار، ومن أخطر هذه الأزمات بل وأكثرها جدلا أزمة الهوية الثقافية التي تتعلق بتكوين شعور مشترك بين أفراد المجتمع الواحد بأنهم متميزون عن باقي المجتمعات، فالهوية من أهم السمات المميزة للمجتمع، فهي التي تجسد الطموحات المستقبلية في المجتمع، وتبرز معالم التطور في سلوك الأفراد وإنجازاتهم في المجالات المختلفة، بل تنطوي علي المبادئ والقيم التي تدفع الإنسان إلى تحقيق غايات معينة، وعلى ضوء ذلك فالهوية الثقافية لمجتمع ما لابد وأن تستند إلي أصول تستمد منها قوتها، وإلى معايير قيمية ومبادئ أخلاقية وضوابط اجتماعية وغايات سامية تجعلها مركزا للاستقطاب العالمي والإنساني[1]، كما شغلت قضية الهوية الثقافية بال المفكرين والعلماء والمثقفين والقادة في دول العالم، خاصة في عصر العولمة الذي ترك أثارا نفسية نتج عنها تحول في الهوية.

وقد أشار" محمود العالم " إلى أهمية الهوية في تشكيل الشخصية الفردية والمجتمعية[2]، وهذا ما أكد عليه " عابد الجابري " حين رأى أنه " لا تكتمل الهوية الثقافية ولا تبرز خصوصيتها ، ولا تغدو هوية ممتلئة قادرة على نشدان العالمية إلا إذا تجسدت مرجعتها في كيان تتطابق فيه ثلاثة عناصر: الوطن (الجغرافية والتاريخ)، الدولة (التجسيد القانوني لوحدة الوطن والأمة)، والأمة (النسب الروحي الذي تنسجه الثقافة المشتركة)[3]، كما أشار "الجابري " في موضع آخر إلى أن " الهوية الثقافية هي حجر الزاوية في تكوين الأمم، لأنها نتيجة تراكم تاريخي طويل، فلا يمكن تحقيق الوحدة الثقافية بمجرد قرار، حتى لو توفرت الإرادة السياسية"[4].

إن الحديث عن الهوية الثقافية الوطنية العربية والإسلامية، والتحديات التي تواجهها من طرف الحضارة الغربية ليس وليد بروز ظاهرة العولمة، وإنما يرجع إلى بدايات عهود الاحتكاك العسكري و الثقافي مع هذه الحضارة قبل قرنين من الزمان تقريبا، لكن ما يميز ظاهرة العولمة هو كون هذه التحديات قد أخذت بعدا آخر في ظلها، أكثر شمولية وخطورة

لأن الثقافة الغربية امتلكت وسائل تقنية هائلة و أدوات قادرة على الوصول إلى عقل الإنسان العربي بشكل دائم ومستمر مؤثر، و قد تداخلت مع عدد كبير من المجالات، فهذه العولمة شاملة وليست ثقافية فقط وإنما اقتصادية وسياسية، فهذان العنصران يدعمان الثقافة بشكل كبير لأنها بدورها تساعدهما على التجذر والتعمق، باعتبارهما خيارات حضارية تستجيب لحتمية التطور.

ومن خلال تفحص الموقف الحضاري المعاصر، نجد أن ثمة خطراً يترصد بشبابنا ويتمثل في تهديد هويته الثقافية، ومصدر هذا الخطر يكمن في سطوة العولمة بتجلياتها الثقافية والإعلامية، وتراجع قيم الولاء والانتماء، مما يشكل ضغوطاً وصراعات نفسية تصل أحياناً إلى أزمات حادة تؤدي إلى اضطرابات سلوكية مسببة أزمة للنمو في مرحلة الشباب، ففئة الشباب يتعرضون في مختلف المستويات إلى كثير من التفاعلات والاضطرابات النفسية والاجتماعية والثقافية التي يكون بعضها معوقاً يحول دون تحقيق متطلبات النمو السليم لعدم التوازن في القدرة العقلية والعقائدية لديهم، ما يجعل شريحة الشباب أكثر عرضة للاختراق الثقافي.

والدفاع عن هويتنا لا يتحقق من خلال الحفاظ عليها كما هي، بل من خلال إعادة بنائها في إطار العولمة والثورة العلمية التقنية، أي بناء العالمية منها في أفق التعددية الثقافية[5]، فالعالمية هي البديل الشرعي للعولمة على حد قول الجابري، ونشدان العالمية في المجال الثقافي كما في غيره من المجالات طموح مشروع ورغبة في التعاون والحوار، إنها طريق الأنا للتعامل مع الآخر بوصفه أنا ثانية[6]، فحاجتنا إلى تجديد ثقافتنا واغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الأسس والأدوات التي لا بد منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتقانة، فنحن بحاجة إلى الانخراط في عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين، والحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية مشروط -أكثر من أي وقت مضى- بمدى عمق عملية التحديث الجارية "عملية الانخراط الواعي النامي والمتجذر في عصر العلم و التقانة"[7].

وعلى ضوء ما سبق تتحدد مشكلة دراستنا في بحث واقع الهوية الثقافية الجزائرية للشباب والتحديات القائمة في ظل تحديات العولمة.

أولا: مفهوم الهوية الثقافية

كان مفهوم الهوية يقتصر فيما مضى على مجموعة من الباحثين والمفكرين المتخصصين في مجال الفلسفة والمنطق الذين يعتمدون في مناهجهم على التجريد ومناقشة المفاهيم والتصورات الفلسفية، أما ونحن نعيش هذا العصر بكل ما فيه من تناقضات فإن التحدث عن الهوية بشكل عام وعن الهوية الثقافية الجزائرية العربية الإسلامية بشكل خاص من الموضوعات الثقافية الهامة ومن قضايا الفكر الاجتماعي والسياسي، فالهوية

التي تعبر عن ذاتية المجتمع واستقلاله وأصالته، وبوصفها مرجعا للحفاظ على تلك الذاتية في وسط التغيرات التي تحدث حاليا، ولما كان المفهومين (الثقافة والهوية) من بين المفاهيم المتشابكة ببعضها البعض، وهو ما يجعلنا نطرح السؤال التالي: ما المقصود بالهوية الثقافية؟

إن مفهوم الثقافة من الناحية الدلالة اللغوية تعني كلمة أو مصطلح "ثقّف" في اللغة العربية قوّم الشيء، أي قومه عندما كان معوجا و غير سوي، فقال العرب "ثقفت الرمح" أي قومته[8]، أي جعلته على أحسن صورة، و أيضا يأخذ المصطلح معنى الإصلاح وإعادة الشيء على حاله وأيضا التصحيح.

أما اصطلاحا: فتعني مجموع الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، ولتكون هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته والطرائق والأساليب والأشكال التي يبدعها الإنسان من ابتكارات يعزز بها إنسانيته وينظم حياته الاجتماعية والخاصة الفكرية والروحية والجمالية، وتشمل الثقافة مجموع النشاط الفكري والفني، وتنظيم جميع السمات المميزة للأمة من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية، وتشمل مجموع المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية المستقرة فيها وطرائق التفكير والإبداع الجمالي والفني والمعرفي والتقني، وسير السلوك والتصرف والتعبير وطراز الحياة كما تشمل تطلعات الإنسان للمثل العليا[9].

وفيما يخص الهوية لغة، هي كلمة مركبة من ضمير الغائب " هو " مضاف إليه ياء النسبة التي تتعلق بوجود الشيء المعني كما هو في الواقع بخصائصه و مميزاته التي يعرف بها، والهوية بهذا المعنى هي اسم الكيان و الوجود على حاله، أي وجود الشخص أو الشعب أو الأمة كما هي بناءا على مقومات ومواصفات وخصائص معينة، تمكن من إدراك صاحب الهوية بعينه دون الأشباه، والمسألة في هذه القضية تتعلق بنوعية تلك الصفات والمقومات والخصائص"[10].

وكذلك تستعمل كلمة هوية في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمة Identity بالإنجليزية و Identité بالفرنسية، والتي تعبر عن خاصية المطابقة، مطابقة الشيء لنفسه أو مطابقته لمثيله.

وتتحدد الهوية اصطلاحا على أنها الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب[11]، أي تلك الصفة والثابتة والذات التي لا تتبدل ولا تتأثر ولا تسمح لغيرها من الهويات أن تصبح مكانها أو تكون نقيضا لها، فالهوية تبقى قائمة ما دامت الذات قائمة وعلى قيد الحياة، وهذه الميزات هي التي تميز الأمم عن بعضها البعض والتي تعبر عن شخصيتها وحضارتها ووجودها.

أما فيما يخص الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم فهي القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى[12].

و على هذا المستوى تقسم الهوية إلى نوعين:

أ- هوية فردية: وهي التي تمثل المميزات والخصائص الجسدية التي تميز الإنسان، من حيث كونه فردا، عن بقية الأفراد سواء داخل مجتمعه أو خارجه ولعل أبرز مثال على ذلك بصمات أصابع اليد.

ب- **هوية وطنية أو قومية:** و هي جملة الصفات والخصائص التي تطبع أمة من الأمم، يشترك فيها مجموع الأفراد المكونون لها، فيتعرفون على بعضهم البعض من خلال هذه الصفات، ويتميزون بها كذلك عن غيرهم من أفراد الأمم الأخرى[13].

والهوية الثقافية الجزائرية تعني في هذه الدراسة كل ما يميز هذه الهوية عن غيرها من الهويات الكونية الأخرى، من بعد أمازيغي ومن عقيدة إسلامية ولغة عربية ومن موروث ثقافي من نتائج الأمة العربية من عادات وتقاليد وقيم وأخلاق وغير ذلك.

ولا شك أن هذه المقومات هي التي تجعل من الهوية الجزائرية متميزة عن غيرها، أو بالأحرى مختلفة عن هويات الأمم الأخرى، أي أن مفهوم الهوية الثقافية الجزائرية والتي تنضوي في إطار ثقافتنا العربية الإسلامية هي الامتياز عن باقي الثقافات من النواحي كافة.

ثانيا: محددات الهوية الثقافية في الشخصية الجزائرية

قبل أن تكون الثقافة الجزائرية انعكاسا لعادة، أو ترجمة لعمل فكري، كانت ولا تزال قبل كل شيء تعبيرا عن الانتماء، الانتماء إلى حضارة ميزتها العربية والأمازيغية والإسلامية، وهي السمات الأساسية للشخصية الوطنية الجزائرية التي حفظتها من محاولات استعمارية لسحبها كلية من ذاكرة الأمة الجزائرية ومن حياتها اليومية، وعليه تتكون الهوية الثقافية الجزائرية من محددات ومقومات ترتكز عليها، سنبينها كالآتي:

أ- البعد الزماني المكاني: تحتل الجزائر مركزا جغرافيا هاما وموقعا استراتيجيا بين قارات العالم القديم والمتمثلة في إفريقيا، أوروبا، آسيا، والجزائر بلد إفريقي وجزء من إقليم حوض البحر المتوسط، حيث انبعثت على ضفاف هذا الحوض عدة حضارات كالفينيقية، اليونانية والرومانية، وهي ليست بعيدة عن أوروبا، سواحلها قريبة من سواحل أوروبا، ومن جهة أخرى أن الجزائر جزء من الوطن العربي، ومهد الحضارات الإنسانية، أهمها الحضارة العربية الإسلامية، ومهبط الوحي ومكان الديانات السماوية (اليهودية والمسيحية والإسلامية)، وموطن مبعث الرسول (ص) في الجزيرة العربية ونزول القرآن، وانتشار الإسلام وقيام العرب بفتحات"[14].

إن الحدود السياسية للجزائر في القرن 20 لم تكن ثابتة، ولم تكن تطلق كلمة الجزائر إلا على مدينة ساحلية صغيرة ولم تكن تعني القطر الجزائري المعروف الآن، فهذا المفهوم لكلمة الجزائر، لم يعرف إلا منذ القرن العاشر، أي أثناء الحكم العثماني، بل إن عبارة المغرب الأوسط لم تكن تعني بالضبط حدود الجزائر الحالية، لأن هذه العبارة وأمثالها (المغرب الأدنى- المغرب الأقصى)، كانت كلها غامضة[15].

كما أن الجزائر قبل 1830 كانت متشبعة ومتأثرة بنفس القيم الروحية والأخلاقية في كل من: المغرب و تونس، وحتى خارج حدود هذه البلدان من شرق ليبيا إلى غاية غربها، كما كان الجزائريون يتنقلون بسهولة من بجاية إلى القيروان ومراكش، وطرابلس، القاهرة ودمشق وبغداد، وكأنهم ذاهبون من الجزائر العاصمة إلى تلمسان، ولهذا فإن رسم الحدود المكانية للهوية الوطنية الجزائرية لم تكن معروفة قبل الاحتلال الفرنسي كما هي عليها الآن، ولم تكن الحدود تعرف بين سكان المغرب العربي.[16]

ب- **البعد الأمازيغي:** لا يشكل الأمازيغ وحدة ترابية متواصلة جغرافيا، إذ يتوزعون على عدة دول في المغرب العربي ومنطقة الساحل الأفريقي جنوب الصحراء الكبرى، وقد ظلوا منذ القدم في تواصل مستمر مع عدة ثقافات أخرى، ولو أخذنا مثلا لذلك المغرب العربي، حيث يتركز الجزء الأكبر منهم، فإن التزاوج بين السكان الأصليين والوافدين العرب بلغ من العمق درجة تجعل التمييز بين ما هو "ثقافة أصيلة" وما هو ناتج عن التأثير العربي أمرا عسيرا[17].

وإذا بحثنا عن مكونات الثقافة الجزائرية لوجدنا أن الأمازيغية مكون رئيسي لهذه الثقافة، ويمكن أن نلخص هذه الفكرة في النقاط التالية:

- تواصل الأمازيغ المستمر منذ التاريخ البعيد مع عدة ثقافات أخرى أبرزها الثقافة العربية الإسلامية.

- تتجلى الجذور الأمازيغية للثقافة العربية الشمال إفريقية في ميادين عدة كالموسيقى والرقص والحكايات الشعبية وفن الزخرفة والصناعات الحرفية، كما تتجلى طبعا في اللهجات العربية المغاربية، إذ يقول عالم اللسانيات الجزائري فضيل شيريقان: "إذا كانت عربية شمال إفريقيا قد استعارت جزءا كبيرا من مفرداتها من العربية الفصحى، فإن بنيتها النحوية والصوتية تعود بأصولها إلى تمازيغت"[18].

- إن أسماء الأعلام التي يدرسها علم الأونوماستيك (onomastique)، هي أحد الشواهد الصارخة على ديمومة الأمازيغية حتى في المناطق التي لم تعد تستعملها منذ عهد بعيد، فرغم وجود اللغتين العربية والفرنسية القوي في الجزائر والساحل الأفريقي، إلا أنه مازالت قرى بلاد القبائل تدعى بأسمائها القديمة.

ج- **البعد اللغوي:** إن اللغة من أهم أبعاد الهوية الوطنية التي تعبر حول الثقافة الوطنية من أفكار ومعتقدات للأفراد، واللغة هي التي تجعل وجودا للثقافة وتناقلها من فرد لآخر ومن جيل لآخر أمرا ممكن الحدوث.

وما نلاحظه أن الجزائر احتفظت بلغتها العربية الفصحى من جهة، فاللغة العربية هي اللغة الأم للثقافة الإسلامية[19]، ومن جهة أخرى لم تتخلى عن لغتها الدارجة التي لا تعتبر مجرد لهجات، بل كثيرا ما تستعمل في نوع من الثنائية اللغوية المفيدة في التعامل والتفاهم، حيث أن اللغة العربية الفصحى كانت تدرس في كافة جهات القطر بل حتى في المناطق التي لا تستعمل فيها العربية الدارجة، ويتخاطب سكانها بالأمازيغية (البربرية)، وفي الحياة الاجتماعية التقليدية العادية تظهر الأساليب التربوية التقليدية الواسعة في: الاتجاه الشعبي، وفي الطرق التعبيرية، في الأمثال والحكم الشعبية والأدب الشعبي[20].

د- **الدين الإسلامي:** إن الدين الإسلامي هو أحد مقومات الثقافة الجزائرية العربية، و بقدر ما يقوم الدين بتشكيل الثقافة يقوم أيضا بشحنها بالرموز و المضامين و القيم و هو يفضي إلى تعبئة المخيال الاجتماعي برموز وقيم وعادات و تقاليد ومن شأنه استثمارها في الحقل الثقافي[21].

فالإسلام هو الدين الجامع المانع الملم لكافة الدول العربية و معلم من معالم الثقافة العربية حيث أن الاعتقاد الديني هو الأصل الذي تقوم عليه الثقافات إذ جاء الدين الإسلامي ليقدم صورة جديدة ومتكاملة من المعتقدات وتفريعات هذه المعتقدات مما لا يقع تحت الحصر[22].

هـ- **العادات والتقاليد:** إن العادات والتقاليد هي فعل اجتماعي متوارث يرتكز على تراث يدعمه ويغذيه، لها قوة معيارية، وتتطلب الامتثال الاجتماعي، والطاعة الصارمة، وتكون مرتبطة بظروف المجتمع الذي تمارس فيه[23]، وتتجسد العادات والتقاليد الجزائرية العربية الإسلامية بالملابس التي يرتدونها الجزائريون، وبالعلاقات والقيم الاجتماعية الأصيلة كاحترام الوالدين وكبار السن والكرم، كما تظهر العادات والتقاليد الجزائرية بالتدين والعبادات.

ثالثا: العولمة: مفهومها ومظاهرها

أ- **مفهوم العولمة:** فالعولمة في اللسان العربي من العالم ويتصل بها فعل (عولم) على صيغة فوعل وهي من أبنية الموازين الصرفية العربية، ونلاحظ عن دلالة هذه في الصيغة أنها تفيد وجود فاعل يفعل، وهذا ما نلاحظه على صيغة (zation) في الإنجليزية على خلاف صيغة(ism) في (Globalism) التي تعني العالمية هذا في اللغة.

أما في الاصطلاح فالعولمة تعني جعل الشيء على مستوى عالمي أي نقله من المحدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة، والمحدود هنا هو أساسا الدولة القومية

التي تتميز بحدود جغرافية وديمغرافية صارمة، تحفظ كل ما يتصل بخصوصية الدولة وتفردها وتميزها عن غيرها، أما اللامحدود فالمقصود به العالم أي الكرة الأرضية[24].

ب- مظاهر العولمة:

- **العولمة الاقتصادية:** يشير مفهوم العولمة من المنظور الاقتصادي إلى تحول العالم إلى منظومة من العلاقات الاقتصادية المتشابكة التي تزداد تعقيدا لتحقيق سيادة نظام اقتصادي واحد، فيه يتبادل العالم اعتماد بعضه على بعضه الآخر في كل الخدمات والسلع والمنتجات والأسواق ورؤوس الأموال والعمالة والخبرة، حيث لا قيمة لرؤوس الأموال من دون استثمارات، ولا قيمة للسلع دون أسواق تستهلكها[25].

- **العولمة السياسية:** العولمة السياسية هي عكس سيادة الدولة، أي فقدان الدولة لسيادتها، ودورانها في عجلة العالمية، وهو هدف تحاول الدول الراعية للنظام العالمي الجديد تحقيقه تحت مسمى العولمة وحدوث ذلك يؤدي إلى فقدان الدول نفوذها وتأثيرها في عالم السياسة[26].

- **العولمة الثقافية والإعلامية:** وهي محور دراستنا، **فالعولمة الثقافية** هي محاولة لوضع شعوب العالم في قوالب فكرية موحدة وذلك لسلخها عن ثقافتها وموروثها الحضاري، "فالعولمة نظام يقفز على الدولة والأمة والوطن، نظام يريد رفع الحواجز والحدود، إنه نظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية للأمة من أي محتوى، ويدفع إلى التفتيت والتشتيت ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة "[27].

أما **العولمة الإعلامية** فيقصد بها "العملية التي تهدف إلى التعظيم المتسارع والمستمر في قدرات وسائل الإعلام والمعلومات على تجاوز الحدود السياسية والثقافية بين المجتمعات بفضل ما توفره التكنولوجيا الحديثة، التكامل والاندماج بين وسائل الإعلام والاتصال والمعلومات، وذلك لدعم عملية توحيد ودمج أسواق العالم من ناحية، وتحقيق مكاسب لشركات الإعلام والاتصالات والمعلومات العملاقة متعددة الجنسيات على حساب تقليص سلطة ودور الدولة في المجالين الإعلامي والثقافي من ناحية أخرى"[28].

أيضا أن "من أهم مظاهر العولمة الإعلامية التي جعلت العالم يشبه ضاحية صغيرة في مدينة كبيرة هو الانفجار المعلوماتي أو البؤرة المعلوماتية التي سيرتها الثورة الاتصالية"[29].

رابعا: الهوية الثقافية والعولمة وأزمة الاختراق الثقافي

تطرح قضية الهوية الثقافية نفسها في ظل تحولات العولمة، والتي تثير أزمة اختراق الثقافة والنظر إلى هذه الأخيرة يكون من منطلق " أنها ظاهرة تتعرض لها مختلف الثقافات الوطنية بما في ذلك ثقافات أوربا ناهيك ثقافات البلدان الواقعة تحت نفوذ الغرب وهيمنته بلدان عالم الجنوب"[30]، ففعل اختراق الثقافة هو سلب للخصوصية وهو فعل اعتداء على الآخر، حيث أن الاختراق الثقافي يستهدف اختراق الهوية الحضارية للأمم

والشعوب من خلال اختراق المنظمات المكونة لثقافتها منظومات التفكير والتمثلات ومنظومات القيم ومنظومات التعبير ومنظومات السلوك[31].

وبشكل عام يتضمن مفهوم الاختراق الثقافي الأبعاد التالية[32]:

- تبعية ثقافة الدولة المستقبلة لثقافة الدولة الباثة، واعتمادها عليها اعتمادا بنيويا في إنتاج القيم و المعاني والأفكار والمعارف التي تحتاج إليها، سواء أكان ذلك بسبب تفوق ثقافات الدولة المخترقة و قدراتها أم بسبب انعدام الثقة في النفس لدى الثقافات المستقبلة.

- وضع العقبات أمام الجهود التي تبذلها الدول النامية لتمثيل دعائم استقلالها الثقافي وضمان سيادتها.

- تعطيل الإرادة الوطنية للدولة التابعة ثقافيا وفقدان سيطرتها على إعادة تكوين ذاتها وتجددها.

ويمثل التحالف بين الثقافة والتقانة ذروة القدرات التي تقدمها العولمة في الحقل الثقافي، فهي تمكنت فعليا من اختراق الحدود الثقافية انطلاقا من مراكز صناعة و ترويج النماذج الثقافية ذات الطابع الغربي، وألغت بالتالي إمكانيات التثاقف كخيار يعني الانفتاح الطوعي للمنظومات الثقافية المختلفة عبر آليات التأثر والتأثير، والتفاعل المتبادل[33].

وايدلوجيا الاختراق الثقافي تقوم على نشر وتكريس جملة من الأوهام، يمكن حصرها في الأوهام الخمسة التالية[34]:

وهم الفردية: أي اعتقاد الفرد أن حقيقة وجوده محصورة في فرديته و أن كل ما عداه أجنبي عنه لا يعنيه، إنما يعمل هذا الوهم على تخريب وتمزيق الرابطة الجماعية التي تجعل الفرد يعي أن وجوده إنما يكمن في كونه عضوا في جماعة وفي طبقة وأمة، وبالتالي وهم الفردية هذا يهدف إلى إلغاء الهوية الجمعوية والطبقية والوطنية والقومية وكل إطار جماعي آخر ليبقى الإطار العالمي بل العولمي هو وحده الموجود.

وهم الخيار الشخصي: يرتبط بالأول ويكمله، إنه باسم الحرية يكرس النزعة الأنانية ويعمل على طمس الروح الجماعية، سواء كانت على صورة الوعي الطبقي أو الوعي القومي أو الشعور الإنساني.

وهم الحياد: ليدفع بالأمور خطوة أخرى في الاتجاه نفسه فما دام الفرد وحده الموجود و ما دام حر فهو محايد وكل الناس و الأشياء إزاءه محايدون أو يجب أن يكونوا كذلك وهكذا تعمل هذه الايدولوجيا من خلال وهم الحياد على تكريس التحلل من كل التزام وارتباط بأية قضية.

الاعتقاد في الطبيعة البشرية التي لا تتغير: إنه يرمي إلى صرف النظر عن رؤية الفوارق

بين الأغنياء والفقراء، بين البيض و السود، بين المستغلين وبين من هم ضحايا الاستغلال وقبولها بوصفها أمورا طبيعية، و بالتالي شل روح المقاومة في الفرد والجماعة.

الاعتقاد في غياب الصراع الاجتماعي: هو التتويج الصريح للأوهام السابقة، غياب الصراع الاجتماعي معناه إذا قبلناه وسلمنا به وقمنا بالاستسلام للجهات المستغلة، من شركات و وكالات وغيرها من أدوات العولمة، وبعبارة أخرى التطبيع مع الهيمنة والاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري يأتي فقدان الشعور بالانتماء للوطن، أو أمة أو دولة و بالتالي إفراغ الهوية الثقافية من كل محتوى.

والجزائر بهويتها الأمازيغية العربية الإسلامية تعيش حالة من تغلغل لتأثيرات سلبية للعولمة الإعلامية والثقافية، ذلك أن تدفق الرسائل الإعلامية والثقافية المعولمة من المراكز الرأسمالية بكل قوتها وعنفوانها وقدراتها تصب في دول الأطراف كمجتمعات العالم الثالث، والتي تصبح في الواقع مجرد مستقبلة لهذه الرسائل الإعلامية والثقافية بكل ما فيها من قيم، بعضها يعتبر في نظر هذه المجتمعات قيما سلبية وأحيانا مدمرة، وهي في جميع الحالات تحمل أخطار الغزو الثقافي مما يهدد الخصوصيات الثقافية لهذه المجتمعات[35].

خامسا: الشباب والهوية، جدلية القبول والرفض

إن مرحلة الشباب تعرف بناء نفسي وفكري وعقدي وهي مرحلة تتصف بالتمرد وحب التطرف والفضول والاطلاع، وتتصف أيضا بالبحث عن الترفيه والمتعة والابتعاد عن الصرامة، وهي الأكثر حبا وميلا لكل جديد، والشباب في البلدان العربية عامة وفي مجتمعاتنا يعيش أزمة هوية، وبعد الانتماء، حيث " تعد فئة الشباب من أكثر الفئات التي تتنوع استجاباتها اتجاه مكونات الهوية ما بين القبول والرفض، كما أنها أكثر الفئات تأثرا بالتحديات التي تواجه الهوية، عبر موجات وهجمات التغيير الثقافي المتتالية وذلك بحكم ما تتميز به مرحلة الشباب من ديناميكية، وقدرة عالية على الحركة والتفاعل مع بعضهم البعض ومع غيرهم من الأجيال الأخرى، وكذلك مع المؤسسات والنظم والقواعد العامة السائدة في المجتمع"[36]، وكلنا يلحظ ما يحدث من صراعات هويات لدى الشباب الذي أصبح يعيش بين قابل في أحيان قليلة ورافض في كثير منها لثوابته و يظهر ذلك جليا في الآفات الاجتماعية و التفكك الاجتماعي والثقافي في المجتمع.

وأصل هذه الجدلية هو صراع لدى الشباب في أعلى سلم للثقافة، هو القيم والانتماء بالإضافة إلى ثوابتنا، وصراع القيم يكون بين قيم المجتمع المتقدم، والقيم التقليدية السائدة في مجتمعنا الأم الذي يؤدي إلى حالة من التذبذب في الانتماء الثقافي.

ويمكن القول أننا أمام فئات ثلاث من الشباب ذوي استجابات مختلفة، الفئة الأولى هي الأكثر ارتباطا بهويتها وعلى الخصوص الجزء الصلب أو القلب من الهوية، وهو القيم الدينية والأخلاقية، وهؤلاء يشعرون بأن هويتهم في خطر شديد وأن الحل الوحيد هو

السعي لحماية هذه الهوية بأي وسيلة، والمشكلة الأكبر أن هذه الفئة من الأصل كانت تعاني من أزمة هوية وطنية، فالهوية عندها لم ترتبط بوطن بقدر ما ارتبطت بدين، أما الاستجابة الثانية فهي استجابة متطرفة وترتبط في الغالب بفئات الشباب الذين يعانون من الحرمان، وفي نفس الوقت يقعون تحت وطأة ثقافة الاستهلاك بشدة، مما يجعلهم يبحثون عن الوسائل التي تشبع احتياجاتهم سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، كما يشعرون بالنقمة على الدولة والمجتمع، اللذين تسببا في حرمانهم من أدنى حقوقهم، أما الفئة الثالثة وهي الفئة المتغربة من الأصل، والتي تعيش على أراضي أوطانها على المستوى المادي ولكنها بمشاعرها وميولها وثقافتها تعيش في مجتمعات أخرى، فهذه الفئة وهي شريحة قليلة من الشباب ميسورة الحال بدرجة كبيرة، تعاني من أزمة هوية مواطنة عن الأصل بحكم عدم رضاها عن واقع مجتمعاتنا وعدم تقبلها للقيم السائدة في هذه المجتمعات[37].

وأصل أزمة الهوية في مجتمعنا هو تلاقي الثقافات، التي تكون في نظر الشباب خاصة في مجتمعنا أنها ثقافة عصرية بالمقارنة مع قيم و ثقافتهم التقليدية، وبذلك يتحقق الاغتراب الذي هو تعبير عن عدم الرضا وعن الرفض للمجتمع وثقافته، وجوهره الشعور بالفقدان[38]، أي أن هذه الأزمة خلقت ما يسمى بالاغتراب الثقافي والتغريب، ولكن لا يمكننا أن نعمم هذا، ذلك انه أثبتت الأحداث والدراسات الميدانية أن قطاعات واسعة من الشباب العرب، قد توحي مظاهرهم و خطاباتهم بأن حسهم الوطني قد توقف أو انحرف، لكن عندما تمر أوطانهم و أمتهم بهزة سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو حتى مناخية، ترى الكثير منهم ينفض غبار الغربة ويرفع الأقنعة الزائفة ويكشف عن حالة وجدانية فياضة، ويبدي استعدادا مفاجئا للتفاعل الثقافي والاجتماعي بل إن بعضهم يتجاوز لغة الاحتجاج ليبدي رغبة صادقة و عميقة في الحراك الاجتماعي[39].

ولكن رغم ذلك هناك أزمة هوية يعاني منها الشباب، وهي متأصلة في مجتمعنا خاصة مع هذه القيم والثقافات الوافدة من مجتمعات أكثر تقدما، ومع ما تعانيه مجتمعاتنا من ضعف وتخلف على كافة الأصعدة أمام النماذج الحضارية الأخرى المقدمة له، ما يؤدي إلى استهلاك قيم وثقافة هذه المجتمعات، والذي أصبح رمزا من رموز المكانة الاجتماعية، وهذا ما يؤدي إلى البحث عن كل ما هو أجنبي، الأمر الذي يؤدي إلى تحولات في البنية القيمية و الثقافية.

سادسا: سبل تعزيز الهوية الثقافية الوطنية للشباب في ظل تحديات العولمة

إن الجدل الدائر حول سبل حماية الهوية الثقافية استمر لوقت طويل و مازلنا حتى الآن مشغولين بالتصدي لعملية التآكل الثقافي، وزاد طرح هذه القضية اليوم أكثر من أي وقت مضى، حيث أدت ثورة المعلومات وما نجم عنها من توسع فرص حصول الأفراد على

المعلومات إلى تهديد الثقافات القومية والمحلية بطرق عديدة، فهي قد تؤدي إلى التخلي عن القيم والأعراف التقليدية، وفي معرض حديثنا عن تأثير العولمة في الهوية الثقافية سنتعرض إلى بعض الاقتراحات والتوصيات نراها كفيلة للتخفيف من آثارها ومواجهتها، وذلك بالقيام بما يلي:

1- ضرورة مراجعة السياسات الثقافية الرسمية والمحلية والعالمية وتطوير استراتيجيات جديدة لبناء الوعي والضمير الإنساني من قبل المثقفين وصانعي الثقافة أيضا.

2- ترسيخ مشاعر الاعتزاز بالتراث الأمازيغي والعربي والإسلامي لدى الشباب وتوفير البنى الأساسية اللغوية التي تؤهل اللغة الأمازيغية والعربية للتفاعل مع لغات العالم الآخر، سواء من حيث تنظيرهما لا تعليمهما، أو إعداد معاجمهما أو برامج استخدامهما عبر وسائط التقنية الحديثة.

3- تقديم قراءة جديدة للتراث تتماشى مع متغيرات العصر، بحيث يكون عاملا من عوامل الإبداع، وذلك عن طريق تأهيل الإنسان القادر على التعامل مع المتغيرات العولمية دون انغلاق على الذات أو رفض الآخر، ودون انفتاح أو تبعية تنطلق من انهزام حضاري، بل تأهيله في إطار أصيل ينطلق من الثوابت والقيم الأصيلة التي تحفظ هويته، وفي نفس الوقت يتوافق مع المتغيرات المعاصرة بالإفادة من ثمارها.

4- التحرك لإبراز الهوية الثقافية، دون البقاء مكتوفي الأيدي وانتظار الاختراق الثقافي الغربي من أجل استهلاكه والاعتراف به، دون شروط تفرض نفسها على الهوية الثقافية المحلية.

5- الدفاع عن الهوية الثقافية ومقاومة الغزو بالعقلانية و بالديمقراطية، بإعادة الاعتبار للهوية الوطنية و تنشيط عناصر الهوية في النسيج المجتمعي لأنها تساهم في معرفة التطور الحاصل بإدراك و وعي.

6- التركيز في المناهج الدراسية على ظاهرة العولمة بما لها وما عليها وبيان أثرها على مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، والتركيز على أثرها في الهوية الوطنية.

7- إنماء الإحساس في نفسية الشباب بالخصوصية الثقافية و ميزات الهوية الثقافية و الحضارية بالتفاعل المدرك مع الثقافات الأخرى على أساس التعاون و التكامل دون تبعية ثقافة إلى ثقافة أخرى.

8- دعم السبل والطروحات الحضارية بين الشباب خاصة التي تدعو إلى الحفاظ على الهوية الوطنية، مع الاعتراف والقدرة على التعامل الإيجابي مع حقيقة التعددية الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية بين مجتمعات العالم، لأن الحفاظ على الهوية الوطنية لا يتحقق من خلال الحفاظ عليها كما هي، بل من خلال إعادة بنائها في إطار العولمة والثورة العلمية والمعلوماتية والتقنية وتكنولوجيات الاتصال.

الخاتمة:

إن الهوية الثقافية هي أساس وجود الفرد وبقائه وهي انعكاس لقيمه وعاداته وأخلاقه وانتمائه، فالهوية الثقافية تحدد بناء على توفرها على عدة مقومات كالقيم والتقاليد واللغة، إذا كان التمسك بالهوية الثقافية مسؤولية تقع على عاتق الجميع فإن الحفاظ عليها هو التحدي الأكبر الذي يقع على عاتق الشباب، باعتبارهم صناع المستقبل والتغيير وبناء الوطن.

فمعاناة الشباب من الاختراق الثقافي وسطوة العولمة تؤدي إلى عدم القدرة على التصرف وفق المقاييس المتعارف عليها أخلاقيا واجتماعيا والشعور بالبعد عن الأهداف الحضارية والثقافية لمجتمعهم ووطنهم، ولا يمكن التغلب على المشكلات والتحديات التي تطرحها العولمة وثورة الاتصال على المجتمعات العربية برفضها أو الهرب منها أو إدانتها وإنما بخلق الشروط الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تسمح بالسيطرة على آلياتها والاستفادة منها لإعادة بناء هذه المجتمعات نفسها وإعادة الثقة لقواها الاجتماعية والثقافية.

الهوامش :

1- عبد الودود مكروم، قيم هوية وثقافة الإنماء، مدخل لتحديد دور التعليم العالي في بناء مستقبل الأمة العربية، المؤتمر العلمي العشرون " مناهج التعليم والهوية الثقافية "، مجلد 4، جامعة عين شمس، الجمعية المصرية للمناهج وطرق التدريس، 30 - 31 يوليو 2008، ص 1375.

[2] - محمود أمين العالم، الفكر العربي بين الخصوصية والكونية، القاهرة، دار المستقبل العربي، 1996، ص 19.

[3] - محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مجلة المستقبل العربي، ع 228، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، فبراير 1998، ص ص 14 22 .

4- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995، ص 12.

5- برهان غليون، ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دمشق، دار الفكر، 1999، ص 55 58.

6- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مرجع سبق ذكره، ص 17.

7- المرجع نفسه، ص 22.

8- أسعد السحمراني، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، ط1، دار النفائس، 2002 ، ص82.

9- حسن عبد الله العابد، أثر العولمة في الثقافة العربية، بيروت، دار النهضة العربية، 2004، ص23.

10- أحمد بن نعمان، الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات، الجزائر، دار الأمة، 1996، ص 19.

11- الشريف علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، 1995، ص257.

12- عبد العزيز بن عثمان التويجري و آخرون، العولمة والهوية، الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي في ضوء فلسفة حوار الأديان والحضارات، الدورة الأولى، الرباط، المملكة المغربية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1997، ص 166.

13- أحمد بن نعمان، مرجع سبق ذكره، ص ص 21 22.

14- محمد الطمار، الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1983، ص 73.

15- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري(16-20م)، الجزء الأول، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص 28.

16- Kamel bouchama, Algérie terre de foi et de culture, Alger, casbah, édition, Houma, 2000, p p 41 42.

17- http://www.aljazeera.net/NR/exeres/.htm (consulté le 10/01/2016, 14:30h).

18- فضيل شيريقان، بين لغة البعض ولغة البعض الآخر، الجزائر، منشورات القصبة، 2002، ص 19.

19- يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، الأردن، منتدى الفكر العربي، 1998، ص 18.

20- Nafissa zerdouni, enfant d'hier, paris, François Maspero, 1988, p 59.

21- عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، المفاهيم والإشكاليات، من الحداثة إلى العولمة، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006.، ص 138.

22- أمين سعيد عبد الغني، الثقافة العربية والفضائيات، ط1، القاهرة، ايتراك للنشر والتوزيع، 2003، ص 72.

23- نادية محفوظ مصطفى، خصائص الثقافة العربية الإسلامية في ظل حوار الثقافات، ط1، القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 2006، ص 22.

24- باسم علي خريسان، العولمة والتحدي الثقافي، بيروت، دار الفكر العربي للطباعة، 2001، ص18.

25- السيد أحمد مصطفى عمر، إعلام العولمة وتأثيره في المستهلك، العدد 256، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص 74.

26- أحمد كنعان، العولمة والبحث العلمي واقعا طموحا، ندوة العولمة والتعليم العالي والبحث العلمي في الوطن العربي، تونس،جامعة العلوم والتقنيات والطب،اتحاد الجامعات العربية، 20-2000/11/23، ص 9.

27- محمد عابد الجابري، العولمة والهوية الثقافية، مرجع سبق ذكره، ص 19.

28- محمد شومان، عولمة الإعلام ومستقبل النظام الإعلامي، مجلد 28، العدد02، مجلة عالم الفكر، أكتوبر- ديسمبر 1999، ص 161.

29- مؤيد عبد الجبار الحديتي، العولمة الإعلامية والأمن القومي العربي، ط1، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، 2002، ص 218.

30- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، ط2، العدد 25، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية، مارس 1999، ص 209.

31- المرجع نفسه، ص 214.

32- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ص 17.

33- عبد الغني عماد مرجع سبق ذكره، ص 290.

34- محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ص 302.

35- حسن عبد الله العابد، مرجع سبق ذكره، ص ص 103 104.

36- هويدا علي، الشباب والهوية والعولمة، جدليات القبول والرفض، العدد 132، مجلة شؤون عربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، 2007، ص 85.

37- صلاح الدين الجورشي، الشباب العربي والانترنت، هروب من السياسة أم محاولة لإعادة بنائها، العدد 182، مجلة شؤون عربية، الأمانة العامة الجامعية للدول العربية، 2007، ص 96.

38- صالح أبو أصبع، تحديات الإعلام العربي، دراسة الإعلام، المصداقية، الحرية، التنمية، والهيمنة الثقافية، ط1، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1999، ص 53

39- صلاح الدين الجورشي، مرجع سبق ذكره، ص 80.